موقف المولى سليمان العلوي من الحركة الوهابية

للأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

في بداية النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري انبثقت فكرة اصلاحية في نجد ، دعا صاحبها محمد بن عبد الوهاب الى نبذ كثير من المظاهر الاجتماعية التي تنسب الى الاسلام جهلا في حين انها بدع ضالة .

وادت دعوته الى خلق مؤيدين ومعارضين شان كل الدعوات وانتقلت من اطارها النظري الى الاطار الحربي حينما بلغ الحكم الى السعود بن عبد العزيز الاول بن محمد بن السعود ، وهو شيخ من نجد ذو شهامة واعتزاز لم يكتف بترداد مضمونها ونشر بنودها نظريا واكنه شهر السيف في وجوه المناوئين حتى استطاع أن يدخل مكة منتصرا سنة 1218 هـ. وبدخوله لها اصبح حكمه ذا طابع شرعي .

ولم تشا الظروف ان يحضر محمد بن عبد الوهاب لحظة الانتصار لانه كان قد توفى سنة 1206هـ ولكنه خلف ولدا ممثلا عقيدة ومتحمسا بفكرة وانده فدافع عنها علما وعملا تحت حماية السعوديين الذين تبنوا الفكرة . واقام ندوات متعددة في مكة لشرح آراء الدعوة الاصلاحية وتفسير اصولها وبين امام محضر كبير من العلماء على اختلاف مذاهبهم ان الدعوة الجديدة تهدف الى تحقيق ما يأتي :

(اولا) احياء الاصول التي يعتمد عليها اهل السنة والجماعة .

(ثانيا) اقرار مذهب السلف فيما يتعلق بالصفات الالهية وهم يقرونها على ظاهرها ويوكلون امرها الى الله .

(ثالثا) الاعتماد في الفروع على مذهب الامام احمد بن حنبل دون التنكير على من يقتدي بمذهب آخر .

واهم ما يتعلق بدعوتهم اقرار التوحيد الاسلامي الطاهر البعيد عن الاشراك بالله ومحاربة كل المظاهر التي أحياها الجاهلون حينما شوهوا زيارة القبور والاضرحة وجعلوها ملتجا لدعواتهم واستغاثتهم واعتقدوا فيها ما كان يعتقده المشركون في اوثانهم واصنامهم .

ولما كان هذا الامر جد خطير بالنسبة للاوضاع الاجتماعية في مختلف البقاع الاسلامية ارتاى السعود بن عبد العزيز ان يوجه رسائل الى ملوك الدول الاسلامية وانى رؤسائها يبين لهم اهداف دعوته ويشرح لهم الاسباب التي ادت الى محاربة الضلالات ومقاومة المفاسد.

وبلغت الرسالة الى السلطان المولى سليمان رحمه الله سنة 1226 هـ فوجدها لا تتنافى مع الاصول الاسلامية ومع ذلك فقد جمع العلماء يستشيرهم ويستفتيهم ويرجو منهم ابراز ما يكنون ازاء هذا الموقف الاسلامي في بلاد الحجاز .

ولم يكن المولى سليمان بالجاهل ولا بالمتخلف فهو الذى تلقى الدراسات الدينية واللغوية عن جماعة من الاساتذة الموفقين تحت رعاية والده محمد بن عبد الله فتربى ذوقه

ورقت مشاعره واصبحت الخشية تغلب على سلوكه ، لذلك فكر جديا في الامر وارسل بعثة مغربية تضم عددا من الفقهاء وعلماء الدين مصحوبين بابنه ابراهيم ليؤدوا فريضة الحج وليتراسوا الحجاج المغاربة وليطلعوا عن كثب على مضمون الدعوة واهدافها .

وضم الوفد المرسل اعلاما مغربية لم تكن مجهولة آنذاك منهم .

القاضي أبو اسحاق ابراهيم الزداغي
والفقيه ابو الفضل العباس بن كيران ،
والفقيه المولى الامين بن جعفر الحسيني المرتبي .
والفقيه محمد العربي الساحلي .

ونقل صاحب الاستقصا نصا من كتاب الجيش لاكنسوس بين فيه ما نقيه الوفد من التجلة والاحترام وذكر جزءا من الحوار الذي كان بين الامير السعود بن عبد العزيز الاول وبين القاضي المغربي (1) ، واهم ما جاء في الاسئلة قول القاضي : « وبلغنا انكم تمنعون من زيارته صلى الله عليه وسلم وزيارة سائر الاموات مع ثبوتها في الصحاح التي لا يمكن انكارها ، وقال : معاذ الله ان ننكر ما ثبت في شرعنا . وهل منعناكم انتم لما عرفنا انكم تعرفون كيفتها وادبها ؟ وانما نمنع منها العامة الذين يشركون العبودية بالالوهية ويطلبون من الاموات أن تقضى لهم اغراضهم التي لا تقضيها الا الربوبية ، وانما سبيل الزيارة الاعتبار بحال الموتى وتذكر مصير الزائر الى ما صار اليه المزور ، ثم يدعو له بالمغفرة ويستشفع به الى الله تعالى ويسال الله تعالى المنفرد بالاعطاء والمنع بجاه ذلك الميت ان كان ممن يليق أن يستشفع به ، هذا قول أمامنا احمد بن حنبل رضي الله عنه ، ولما كان العوام في غاية البعد عن ادراك هذا المعنى منعناهم سدا للذريعة فاي مخالفة في هذا القدر اهـ » ؟

ولما رجع الوفد الى المغرب بين بكل وضوح موقف الوهابيين وتمسكهم باصول العقيدة واحترامهم لآل البيت وتطهيرهم للحرم الشريف من كثير من البدع والمفاسد ، وسمع المولى سليمان كل ذلك ووعاه فرآه منسجما في جوهره مع التعاليم الدينية وقارن بينه وبين ما عليه كثير من الجهلة بالمغرب حينما غلوا في الدين ونسبوا الى غير الله ما هو لله . فاشفق عليهم من ذلك وكتب رسالته الشهيرة التي انكر فيها سلوك أهل البدع الضالة وفتح الاعين على حقيقة السنة التي تتنافى مع الغلو في احترام الاموات غلوا يدفع العوام الى الاعتقاد في كونهم ينفعون أو يضرون .

وهذه الرسالة تظهر لنا أن موقف المولى سليمان من مفهوم البدعة لم يكن بعيدا عن موقف الوهابيين ولكن موقفه من مخالفتها لم يكن شبيها بموقفهم ، فهم اختاروا العنف وآثروا منع العوام من زيارة القبور سدا للذريعة وهو اختار طريق التوعية والارشاد والنصيحة وفتح الاعين على حقيقة الدين ، وخطته هذه صالحة بالنسبة للوضع الذي كان عليه المغرب آنذاك وبالنسبة لموقف المولى سليمان من هذا الوضع .

فالمغرب في الحقيقة غزته الاتجاهات الصوفية الصافية حقبة من الزمن فلعبت دورا عظيما في تهذيب النفوس وتقوية الايمان والاعانة على الجهاد والمحافظة على مصالح البلاد ثم تضاءلت هذه الحقيقة فدخل ادعياء التصوف في الميدان وانتقلت الحركة الصوفية الى ايدي بعض العوام فتلاعبوا بجوهرها وكدروا صفاءها ودنسوا روحها . وهنا لا بد من اختيار طريق الاصلاح، فاما محو للفكرة الصوفية من اساسها وقضاء على مراكزها واما تهذيب للطباع ونشر للدعوة السليمة وارجاع الحق لذويه والفضيلة لممارسيها .

اما الوهابيون فقد اختاروا الاتجاه الاول فقرروا هدم كثير من المزارات وتحطيم كثير من الاضرحة لانهم راوها تحول بين العبادة الطاهرة وبين الانسان أما المولى سليمان فاختار الطريقة الثانية ورأى أن تطهير المبادئ

(1) « الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى » تاليف الشيخ ابي العباس احمد بن خالد الناصري ، طبعة دار الكتاب ، الجزء الثامن ، ص 121 . ومما يلاحظ انه وقع خطا للناصري حيث نسب هذا الحوار لعبد الله بن السعود في حين انه للسعود بن عبد العزيز ، ويظهر ذلك من التحقيق التاريخي الآتي : فالسعود قد ولي الملك سنة 1218 هـ ، وتوفي سنة 1229 هـ حيث تولى من بعده ابنه عبد الله ، ولقد تقدم لنا أن الوفد توجه الى الحجاز اثر الرسالة التي بلغت الى المولى سليمان سنة 1226 هـ ، وهو تاريخ يتفق مع عهد السعود لا عهد ابنه عبد الله . انظر تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة للدكتور احمد السعيد سليمان .

المصلح مولاي سليمان ملك المغرب ، وفى وقتـــه
قام الاسبان بعرض بيع المدن المحتلة من طرفهـــم
بشمال المغرب ولكن فى نفس الوقت كانوا يفكرون
فى احتلال منطقة وادي نون والساقيـة الحمـــراء

الصوفية خير من القضاء على مراكزها ولهذا فكر جديا في انجهر بالحقيقة وحاول ان يظهرها امام الملا وان يزيل المسؤولية فاعلن موقفه بكل وضوح وبدون التواء .

ان اصلاح العقيدة شرط اساسي في نقاء النفس وسلامة الايمان وكلما انتشر الغلو بين قوم الا وضعفت فيهم قوة التفكير وضاعت منهم سمة العقل الرشيد . وهذا هو السر في ان المولى سليمان حاول القضاء على مظاهر البدع في دولته لانه رآها تخرب العقيدة وتفسد روح الايمان وتكثر في التهريج والخرافات ، وبين التهريج والخرافات تضيع الحقائق وتنهار القيم وتصبح الاياني الجاهلة تتصرف في عقول اغلبية الشعب فلا تبقى للاسلام ملامحه الظاهرة ولا مواقفه المشرفة ويصبح الحق باطلا وتصير البدعة سنة وويل لامة تنقلب فيها الآية فاذا بالحق يدخل في اطار الخرافات بالخرافة تدخل في اطار السنة المتبعة .

تلك خطة المولى سليمان ، انها مؤازرة لفكر الوهابيين من الناحية الدينية فيما يتعلق بتطهير العقيدة من الانحرافات التي اصيبت بها ، الا انها مخالفة لطريقة التطبيق التي سار عليها اولئك .

اما الموافقة فتظهر في المقارنة بين رسالة المولى سليمان وبين المصادر الاصلية التي وضعها الوهابيون شرحا لعقيدتهم .

ومن هاته المصادر كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد لمحمد بن عبد الوهاب ، صاحب الدعوة ، فلقد اختار فيه من الآيات والاحاديث ما يؤيد به وجهة رايه وتعرض لمفهوم التوحيد والشرك وبين فيه المواقف الحاسمة التي اظهرها الاسلام ضد كل ما من شانه ان يجعل لله شريكا في اي صفة من الصفات او شكل من الاشكال ، وبين ان الغلو في قبور الصالحين يصيرها اوثانا تعبد من دون الله واستدل في هذا الباب بالحديث الذي دونه الامام مالك في الموطا فقد روي عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد (2) ، واخرج المولى سليمان هذا الغلو من الناحية النظرية الى الناحية العملية ليدل المغاربة على مواقعه وعلى اخطاره فقال في رسالته : « من الغلو البعيد ابتهالات اهل مراكش بهذه الكلمة سبعة رجال فهل كان لسبعة رجال شيعة يطوفون عليهم ، فعلينا ان نقتدى بسبعة رجال ولا نتخذهم آلهة لئلا يؤول الحال منهم الى ما آل اليه في يفوت ويعوق ونسرا » .

وهي صيحة لا تصدر الا عن مومن صادق يعرف مضار كل تعفن في العقيدة والسلوك وحاول ان يستخدم الجانب الاقناعي في النهي ليرفع به مستوى الذين يستمعون اليه فتضمنت هذه الفقرة من رسالته الملاحظات التالية :

اولا : ان الابتهالات بالاشخاص داخلة في اطار الغلو البعيد .

هؤلاء السبعة رجال لم تكن لهم شيعة يطوفون عليهم فلم هذه البدعة التي لا اصل لها في اسلافهم .

ثالثا : الاشعار بان الغرض من زيارة الاموات وزيارة الصالحين الاقتداء بافعالهم واخلاقهم لا التعظيم المجرد الذي يخرج عن دائرة التربية الى دائرة الاعجاب السلبي

رابعا : تذكيرهم بان عبادة الاوثان انما جاءت عن طريق الغلو في الصالحين وهو يشير بذلك الى ما ورد في الصحيح من ان هذه الاسماء هي لرجال صالحين من قوم نوح أعجب بهم محبوهم فجعلوا لهم صورا وتماثيل سموها باسمائهم حتى اذا طال بهم الاعجاب وهلكوا بقيت مائلة للناس فورثوا حبها الى حد التقديس ثم الى حد العبادة .

خامسا : في هذه الفقرة دعوة صريحة الى استخدام العقل من جهة والى التقيد بنصوص السنة من جهة اخرى .

ان هذه الملاحظات لتدل دلالة واضحة على التوافق في اصل المبادىء السنية بين راي المولى سليمان وبين الدعوة الوهابية ولكننا في الوقت نفسه لا نشعر انها ستطبق عن طريق القسر والقهر وانما يبدو انها ستسير وفق الافهام الشرعي والعقلي ليبتعد المخالفون اقتناعا لا ليبتعدوا ردعا وزجرا .

وهذه هي الخطة التي تتلاءم مع الاتجاه الاصلاحي الذي كان يهدف اليه المولى سليمان ومع الاتجاه السني الذي دعا اليه والد المولى محمد بن عبد الله رحمه الله . قال الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله في كتابه « معطيات الحضارة المغربية » حين حديثه عن ملوك المغرب

(2) كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب ، الطباعة المنيرية ، صفحة : 49 .

علي باى العباسي ما هو الا الاسباني دييكو باديا الذي جاء الى المغرب سنة 1803 مبعوثا من طرف كودوى الساعد الايمن لملك اسبانيا وكانت مهمته تهييء الجو لانقلاب يجب ان يقع بالجنوب المغربـــي ليمكـــن الاسبانيين احتلاله بسهولة

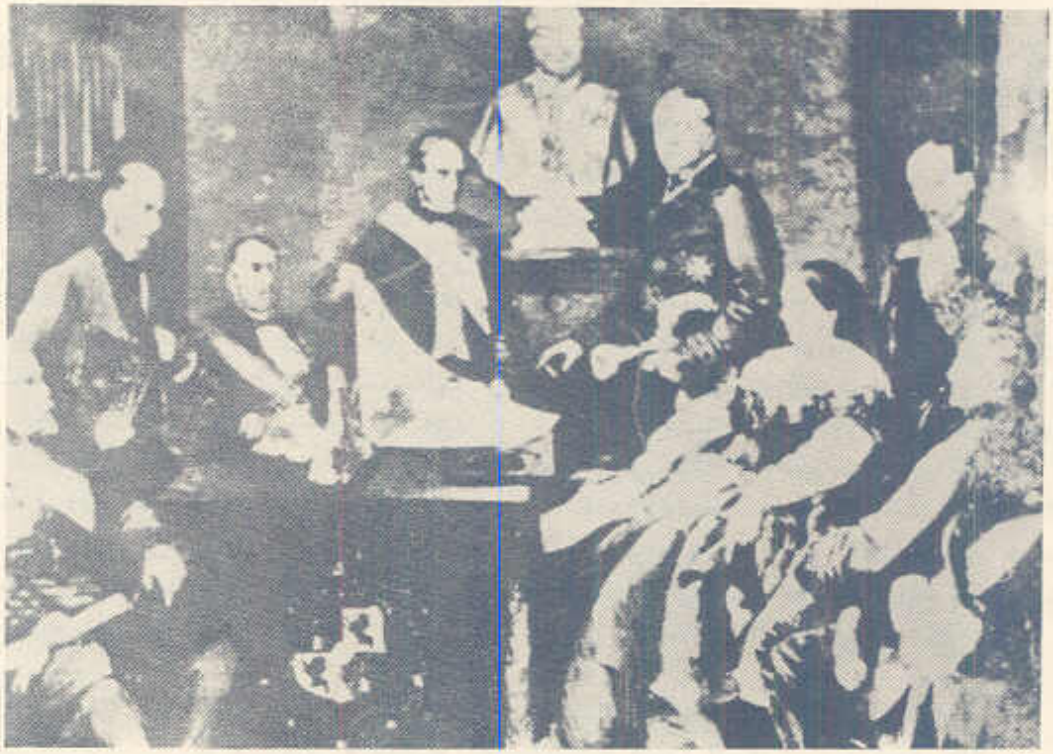

اعلنت اسبانيا الحرب على المغرب يوم 1859/10/22
ويرى فى الصورة الملكة الاسبانية ايزابيل الثانيـة تترأس مجلسا للوزراء .

والطرقية (3) « وقد الف أبو الربيع مولانا سليمان خطبة ضد المواسم والطوائف متأثرا فيها بروح والده السنية وكان تحريره لهذه الرسالة سدا للذريعة وحماية للشريعة رغم تشبعه هو ووالده بالروح الصوفية السلفية .

ولعل هذا التشبع بروح الصوفية السلفية هو الذي جعل المولى سليمان يختار في تطبيق الفكرة طريق الوعظ والاقناع والتوعية لئلا ينسف كثيرا من المظاهر الحضارية داخل المغرب .

فالفكرة في اساسها فكرة سنية سلفية ودعوة الوهابيين لها لما يؤكد اخلاصهم في الدين وتفانيهم في تطهير العقيدة ولكن تحقيق هذه الدعوة عند المولى سليمان ياخذ سبيلا غير سبيل الوهابيين .

ان الفكرة في اساسها واحد، فلماذا نضيق الخناق على الفكر فلا نختار الا سبيلا يؤدي الى العنف والاضطراب .

اذنا لو بحثنا بعمق لوجدنا ان الظروف لها دور فعال في اختيار الاجتهادات ولهذا ينبغي أن نزيل عنصر الحقد والتعصب من انفسنا لنبحث عن الحقيقة وان نمعن النظر في الاحاديث الواردة في هذا الباب وفي طرق تاويلها عند كل طائفة والا ناخذها ماخذا نهائيا ما دامت قابلة للتاويل والتفسير .

ان هذه الاحاديث التي يجعلها الوهابيون انطلاقا الى مواقفهم تجد من علماء المسلمين من يشرحها شرحا آخر ينطبق مع اتجاه الذين اباحوا زيارة القبور وبناء الاضرحة وشد الرجال لها لا على اساس انها تزار لذاتها وانما على اساس تقدير المزور تقديرا لا يتنافى مع سلوك الاسلام ، فلو اخذنا مثلا قول الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في السياق لعنة الله على اليهود اتخذوا قبور انبيائهم مساجد لوجدنا هذا القول منه تحذيرا لاصحابه من ان يفعلوا بقبره ما فعل اليهود بقبور انبيائهم لئلا ينساقوا مع اهوائهم فتبلغ بهم محبته الى حد الغلو الذي يخرجهم من ايمانهم ويبعدهم عن توحيدهم .

وهذا الحديث ياخذه الوهابيون ويجعلونه منعا مطلقا فنجمع بين القبر والمسجد ويضيفون اليه احاديث اخرى تؤكد معناه وتصرح بالمنع والحظر ويضعه ابن عبد الوهاب في كتابه التوحيد في باب ما جاء به التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف اذا عبده . لكننا اذا اخذنا الحديث ذاته لوجدنا هناك تفصيلا في شرحه عند طوائف من المسلمين .

فالبيضاوي مثلا ، وهو احد المفسرين ، يقول : « لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الانبياء تعظيما لشأنهم ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها واتخذوها اوثانا لعنهم الله ومنعهم عن مثل ذلك واما من اتخذ مسجدا في جوار صالح وقصد التبرك بالقرب منه لا بالتعظيم له ولا التوجه نحوه فلا يدخل في ذلك الوعيد (4)

وفي هذا النص تاويل شرعي يبيح اقامة الاضرحة بجوار المساجد لكننا قد نجد ان المنع الذي يفهم من سياق الحديث ناتج عن الخوف من عبادة الاضرحة وعبادة اربابها ، أما اذا زال المانع فان المانع يزول بناء على القاعدة الاصولية التي تقرر ان العلة تدور مع المعلول وجودا وعدما .

وهكذا نجد ان الحديث صالح للمنع وصالح للتفصيل بين المجاورة والمباشرة وصالح لتاويل الجواز اذا زال المانع ويكون الحال حينئذ في هذه المشكلة كالحال في امر التصوير ، فقد وردت احاديث تزجر المصورين وتخوفهم من عذاب الله (5) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله وقال كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم وظاهر هذين الحديثين المنع مطلقا وبذلك قال الوهابيون ولكننا لو امعنا النظر لرأينا ان السبب في المنع هو التخوف من ان يعود الناس الى عبادة الاوثان اما اذا زالت هذه الاسباب وارتفعت وارتفعت هذه الموانع فانه لا مبرر لاستمرار هذا التحريم وبذلك افتى الشيخ محمد عبده رحمه الله وهي فتوى تنسجم مع الواقع وتنطبق مع العقل ولا يجافيها الرأي السليم (6) .

---

(3) معطيات الحضارة المغربية للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله ، الجزء الاول ، ص : 162 .
(4) « ارشاد الساري لشرح البخاري » للعلامة القسطلاني ، الجزء السادس ، صفحة 521 .
(5) كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب ، صفحة : 123 .
(6) اقرا بحثا في موضوع التصوير ووضع التماثيل بكتاب الفكر الاسلامي والتطور للاستاذ محمد فتحي عثمان ، الطبعة الثانية صفحة : 284 .

ان نفس الاعتبار يمكننا ان نجعله منطبقا على بنـاء الاضرحة وعلى زيارتها وعلى وضع المساجد بازائها فاذا خيف من عبادة الاضرحة عبادة من يسكنها فان المنع ظاهر. اما اذا زالت هذ ه التخوفات ولم يعد هناك ما يبررها فلا معنى للمنع والتحريم .

ولعل هذا الاعتبـار هو الذي دفع المولى سليمان الى النهي عن الغلو والى محاولة توعية رعاياه لئلا يقعوا في هذه الموبقات المؤدية الى تاليه الاضرحة وذويها .

ان الوضع المغربي كان يقتضي ثورة على المفاهيم لا نسفا للمآثر والمعالم ، فحفاظا على تاريخ اولئك الذين بنيت أضرحتهم بناء مشيدا وجلهم من الفاتحين والمرابطين والمجاهدين والعلماء والمربين والصالحين وابقاء لمظاهر بطولاتهم لتكون رمزا يقتدى به المقتدون فان المولى سليمان آثر التوعية على الهدم والارشاد على التحجير والتنبيه على حقيقة آداب الزيارة وعلى إبطال الزيارة من أصلها. وبذلك تكون الفائدة مزدوجة تجمع بين الابقـاء على معالم الصلاح وبين اصلاح نفوس المنحرفين .

وهذا التاويل لا يتنافى مع روح السنة النبوية التي اراد الوهابيون احياءها كما لا يتنافى مع الروح الصوفية الطاهرة التي ربي عليها المولى سليمان .

واحياء السنة في الدعوة الوهابية لم يقتصر على هذه الجزئية بالذات ، فلقد دعا محمد بن عبد الوهاب الى الوحدة والاخاء والابتعاد عن التناحر وعدم الرضى بالتقليد الاعمى وغير ذلك من الصفات الحميدة وهي صفات لو تاملنا حياة المولى سليمان لرايناه يدعو اليها ايضا .

فالروح الاصلاحية كانت تجمع بين الدعوتين ولن يقوم الكيان الاسلامي الا على اساس الوعي الصادق والاخلاص المتواصل والاعتزاز بالله وبدينه .

ويمكن لمن يدرس التاريخ الفكري لهذه الدعوة ان يجد اصولها في كتاب وضع تصميمه الداعيـة محمد بن عبد الوهاب وشرحه شرحا كافيا وفق المنهج الوهابي عالم العراق الكبير السيد محمود الالوسي وسماه : « مسائل الجاهلية (7) التي خالف فيها رسول اللـه صلى عليـه وسلم أهل الجاهلية » وكانه في هذا الكتاب يريد ايضاح مظاهر الانحراف في عهده التي اصبحت شبيهة بمظاهر الانحراف التي كانت في العصر الجاهلي ولم يتغلب على تلك الا برسالة الاسلام ولهذا لا يمكن التغلب على هذه الا باحياء السنة وبالرجوع الى ينبوعها الاصيل .

ولعل الزمن لو امهل المولى سليمان لاحياء معالم الفضيلة وقضى على التخلف الفكري ولاستطاع ان يهذب النفوس ويرشد الغافلون ويبعث السنة من جديد ولتراجع عن التسهيلات التي منحها لبعض الكتب التي ضيق والده طريق نشرها فقد كان المولى محمد بن عبد الله يحارب كثيرا من كتب الفروع وكتب غلاة الصوفيين ولكن المولى سليمان لم ير رايه فكان ذلك من الاسـبـاب التي ادت الى عدم التوفيق في رسالته الهادفة الى احياء السلفية ومحاربة البدعة والقائمة على التوعية ومخالفة التعـفـن الفكري والعقائدي .

فاس : محمد بن عبد العزيز الدباغ

---

(7) طبع الكتاب سنة 1348 هـ بالمطبعة السلفية لمحب الدين الخطيـب .